إشكالية العولمة والكونية في فكر جان بودريار.

أ.فاطمة الزهراء بن ماضي.

جامعة الجزائر2.

الملخص: إن ميلاد العولمة وتحولها إلى حدث كوني، ولد ما يعرف ب "الإنسان العالمي"، وهو الإنسان الذي يعيش في مجتمع كوني واحد متحررا من الجغرافيا والتاريخ، ومن كل القيود التي تضيق أو تشل حريته. فالإنسان اليوم يعيش في إمكانيات جديدة للوجود والحياة، تنبثق على نحو لا نظير له من قبل، وهي لا تسفر عن عولمة المدن والأسواق فقط، بل تفضي أيضا إلى عولمة الأنا، وإن اكتساح العولمة لمجالات الكوني الإنساني هو ما جعل الكوني يتحول إلى كوني هيمني وهذا ما نلمس صداه في فكر جان بودريار الذي يحذر من خطورة الخلط بين الكوني الإنساني والعالمي والعولمة. من هنا نتساءل:

هل العولمة تهدد الكوني؟ وما السبيل إلى عولمة لا تستخف بالكونية الإنسانية وإلى كونية لا تختزل في العولمة؟ وهل القيم الكونية تصدعت في زمن العولمة؟ ولماذا رأى بودريار هلاك الكوني بالعولمي؟.

الكلمات المفتاحية: العولمة، الكونية، الإنسان العالمي،الإنسانية، كوني هيمني.

The question of globalization and cosmic in the thoaght of john baudrillard.

Summary: The birth of globalization and its transformation into a global event born of what is known as the universal human being, who lives in universal society free of geography and history and all restrictions that limit his freedom. Today man lives in new possibilities of existence and life emanating in a umanner similar to him before and sweep of globalization to the areas of human universalities is what made the universe become a hegemonic and this monmus echoed in the thought of baudrillard who warns of this confusion:

Is globalization threatening the cosmic and the way to universalization does not underestimate the humanity of humanity and to the universe does not diminish in the globalization? And did the realises of the universe cracked in the time of globalization? Why did baudrillard see the universal?.

Key words: Globalization, universal, universal human, humanity, cosmic.

مقدمة:

إن الصراع الذي نعيشه اليوم هو صراع بين العولمة والكونية إننا نعيش ثورة تاريخية للكونية ضد العولمة لذلك دأب الباحثون على تشخيص ظاهرة العولمة وقراءتها، كل حسب رؤيته وأيديولوجيته، فالاقتصادي يركز اهتمامه على

الوضع الاقتصادي العالمي، والسياسي يركز اهتمامه على مدى تأثير الوسائل التكنولوجية على الدولة، وعالم الاجتماع يهمه وضع المجتمعات في ظل هذا العالم الكوني الجديد، الذي تزايدت فيه الأصوات الداعية إلى احترام حقوق الإنسان الكونية في مقابل طغيان السلطة التقنية والاقتصادية فحدث توتر بين اتجاه فكري يدافع عن الكرامة الإنسانية واتجاه اقتصادي عولمي له تأثير كبير وخطير على الذات، و يمثل تهديدا لهوية ثقافية خاصة حين تصير صورة الذات ظلا للآخر منبهرة ومشدودة لانجازاته فتقف عاجزة عن الإبداع ويتحول كيانها بلا خصوصية تشدها إلى الأصل وبلا مشروع كوني تقبل به على الآخر وتندمج معه في بناء هذه الكونية وهذا التوتر هو الذي يبرر طرح مشكلة العلاقة بين العولمة والكونية خاصة عند عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي جان بودريار* الذي رأى تلاشي الكوني في العولمي فالكونية التي تحققت في ظل العولمة ليست كونية حقة بل هي ادعاء للكونية، بل إنها العولمة المتنكرة في ثوب الكونية، ومن هذا المنطلق نتساءل: هل بإمكان البشرية أن تتوحد حول قيم مشتركة تحد من عنف العالمي على حد عبارة بودريار؟، وما الكونية؟ وفيما تتمثل حقيقة العولمة؟ هل العولمة خلاص البشرية أم هي كونية زائفة وخادعة؟ وكيف انحرفت الكونية من مجال القيم الإنسانية إلى مجال العولمة؟.

1- الكونية:

اتخذ مفهوم الكونية في الدراسات الحديثة بعدا فلسفيا فغدا حاملا لمعنى الشمولية، ومقابلا لمعنى الخاص أو الذاتي أو الجزئي، وكلمة كوني منسوب إلى الكون وبخاصة ما يتصل بتركيبه الفلكي "تقدم العلم في معرفة النظام الكوني"، وعلم الكونيات علم يبحث في القوانين العامة للكون من حيث أصله وتكوينه"[1].

وقد أعطى طه عبد الرحمان مفهوم الكونية فلسفيا فردها إلى مدلولين: الأول الكونية تعني الكلية ويقصد بالكلي هنا ما يشمل جميع أفراد الإنسان، من حيث كونهم كائنات عاقلة، ومن ثم فالكلي هنا بهذا المعنى يقابله الجزئي الذي لا يستغرق أفراد النوع الإنساني. أما المعنى الآخر لمفهوم الكونية فهو العالمية، ويقصد بالعالمي ما يصدق على جميع

[1]- المعجم العربي الأساسي: تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب، تقديم الدكتور محي الدين صابر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، ص 1061.

*جان بودريار (1929 –2007)، سوسيولوجي وفيلسوف فرنسي، متخصص باللغة الألمانية، وهو من أبرز مفكري تيار ما بعد الحداثة، سمته العامة المعارضة.

أقطار المعمورة، من حيث هي دول قائمة بذاتها، وبهذا المعنى للعالمي يكون مقابله المحلي"[1] ومنه يمكن القول أن الكونية تعني الشمولية والعمومية، وتقابلها الخصوصية.

ويعطي بودريار مفهوما للكونية فيقول: "هناك تشابه خادع بين لفظتي العالمي والكوني. إن الكونية هي كونية حقوق الإنسان، والحريات، والثقافة، والديمقراطية..."[2]، فالكونية هي أمر مخالف للخصوصية وقريبة من العالمية والأممية والكلي والشامل وتدل على مجموعة من القيم التي يحصل حولها إجماع واتفاق من طرف كل الناس مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان فالكونية هي كونية القيم الإنسانية الثابتة، وهي مشروع يعمل على توحيد الإنسانية وتأصيل ما هو إنساني في الإنسان، كالاعتراف بالاختلاف والتنوع كقوانين تحكم الكون، وضرورة الانفتاح على الأخر والتواصل معه مع احترام الخصوصيات.

ويرى بودريار "أن العام كان فكرة حين تحققت في العالمي وانتحرت كفكرة كغاية مثالية، أما وقد صار الإنساني هيئة مرجعية وحيدة، أما وقد احتلت الإنسانية للمحايثة لذاتها المكان الفارغ للإله الميت يسود الإنسان وحده من الآن فصاعدا لكنه لم يعد يملك سببا نهائيا، وبما أنه لم يعد يملك عدو فهو يستولده من الداخل"[3]، وهذا يعني أنه بعد إعلان موت الإله و تولي الإنسان المركزية الكونية عمل على إقامة عالم متحرر من كل نظام طبيعي سواء أكان نظام الجسد أو الجنس أو الولادة أو الموت.

2- العولمة :

هناك من يعرف العولمة على أنها ثورة علمية تكنولوجية واجتماعية وهذا التعريف يركز على فكرة الثورة التكنولوجية والاجتماعية والاتصالية، التي تتضمن تحرير الأسواق وإزالة القيود المحيطة بها، ونشر التكنولوجيا، والتوزيع العابر للحدود وللإنتاج والمصنع والاستثمار الأجنبي المباشر، وتكامل أسواق رؤوس الأموال.

ويعتبر النشاط الاقتصادي من أبرز مظاهر النشاط الإنساني تأثيرا بعولمة الثقافة والإعلام واستفادة منها. فغالبا ما يتبادر إلى الذهن، عند الأخذ في موضوع العولمة: العولمة الاقتصادية وهي الأكثر اكتمالا، والأكثر تحققا على أرض

---

[1]- طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2006، ص ص 51- 52.

[2]- جان بودريار: السلطة الهمجية، تر: بدر الدين عرودكي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد134، 2006، ص 43.

[3]- جان بودريار :روح الإرهاب، تر: بدر الدين عرودكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010 ، ص 71.

الواقع من كافة تجليات العولمة الأخرى"[1]. لكن الملاحظ أن في هذه الآونة الأخيرة بدأت العولمة التكنولوجية والاتصالية تصعد إلى مرتبة العولمة الاقتصادية، بل وتنافسها.

ويعد "مارشال ماكلوهان"* أول من استخدم مصطلح العولمة معرفيا، وذلك حين صاغ في نهاية الستينيات مفهوم القرية الكونية global village" مبشرا بتقلص المجتمع الإنساني إلى قرية كونية صغيرة، تتشابك بفعل ثورة المعلومات والتطور التكنولوجي الهائل لوسائل الإعلام. فلقد بدأت العولمة في مجال الإعلام فلا وجود لعولمة سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، دون قوة ثقافية إعلامية، تتيح لمن يمتلكها بسط النفوذ وفرض قيمه ومصالحه"[2].

فالعولمة لما تحققت على أرض الواقع كانت نسقا أكثر منها نظاما. لذا لا يجوز نعتها بالقرية، لأن القرية تحمل معنى التراحم والتكافل والحميمية، والكثير من الأمور الجميلة عكس النسق الذي يحمل معنى الجبرية والقصر.

أما "رجيس دوبرية" فيذهب إلى أن العولمة زادت العالم تشرذما بازدياد وتائر توحيده، ويقصد بذلك أنه كلما تعمقت الكونية الاقتصادية تشرذمت الأبنية السياسية والاجتماعية. وكلما زادت عولمة الاقتصاد برزت النزاعات القومية محاولة الدفاع عن الانتماء المهدد بفعل الكونية المفروضة من الشمال من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وعلى جميع أنحاء العالم، لتعميم نمط الحياة والفكر الأمريكي الشمالي .

لذلك "فرجيس دوبرية "يراها عولمة زائفة لا تبادل فيها بالمثل، بل الأمر يتعلق بتغليف ثقافة الضعيف بثقافة القوي"[3]. فالعولمة تحكمها مجموعة من القيم لدول عظمى في النظام الدولي من أبرزها الولايات المتحدة الأمريكية، التي تسعى إلى فرض نموذجها الحضاري في الاقتصاد، حيث آلية السوق وحرية التجارة هي المبادئ الأساسية، وفي السياسة تبرز شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان، وفي الثقافة يتم التركيز على الفردية وحرية الإنسان.

وفي **تعريف** "**جان بودريار**" للعولمة يقول: "هناك بين لفظتي العالمي mondial والعام universel تشابه خادع. إن العمومية هي عمومية حقوق الإنسان والحريات، والثقافة، والديمقراطية، أما العولمة فهي عولمة التقنيات، والسوق،

---

[1]– صلاح عثمان :الداروينية والإنسان، نظرية التطور من العلم إلى العولمة ،منشأة المعارف جلال حزى وشركائه، ط1، 2001، ص 194.

[2]– صلاح عثمان :الداروينية والإنسان، مرجع سابق، ص ص 191– 192.

[3]– السيد ياسين: العالمية والعولمة ،دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط2، 2002، ص 136.

*مارشال ماكلوهان: أستاذ علم الاجتماع بجامعة تورنتو.

والسياحة والإعلام"[1]. ومنه فإن العولمة تتمظهر كجانب سلبي لشمولية التقنية التكنولوجية الذي لا خلاص منه في عالمنا اليوم، أما العام الذي يقصد به الكوني أو البعد الإنساني في تمظهره السياسي والأخلاقي فهو في طريقه إلى النهاية. أي أن العام تكون في نظام قيم وهذا العالم في طريقه إلى الزوال والتلاشي، أما العولمة فهي اتجاه لا محيد عنه على حد تعبير بودريار.

ومنه يفرق بين الكونية universalization والعولمة globalization فالتشابه بينهما كما يراه مخادع، حيث تتعلق الكونية بحقوق الإنسان، والحرية والثقافة والديمقراطية، أما العولمة فهي على العكس تتعلق بتكنولوجيا السوق، والسياحة والمعلومات. ومنه يجب عدم الخلط بين الكوني الإنساني وبين العالمي أو العولمي أو العولمة بما هي مفاهيم تحيل حسب بودريار على دلالات اقتصادية وسياسية وبالتالي على كوني تحول إلى عملية تحكم وسيطرة أكثر من ادعاء امتلاك الكوني.

إن الوسائل والتقنيات المتطورة التي جلبتها العولمة، بقدر ما أعانت الإنسان بقدر ما ضيعته وغربته وشيأته، فمن قبل لم تنتشر مسألة أزمة الإنسان بهذه الحدة، بقدر ماهي منتشرة اليوم في عصر العولمة، حيث بلغت الإنسانية قمة التطور وبالمقابل تعرضت إلى قمة القلق الوجودي والتساؤل عن واقع ومآلات الإنسان، فهل ستتحطم على أيدي ما أفرزته؟.

لقد أكد "جان بودريار" أن كل ما يحدث في كوكبنا اليوم من تحولات هو انتقال من الكوني إلى العالمي عن طريق العولمي. فهل يعني هذا أن الكوني اختفى واندثر؟ .

3- تأثير وسائل الإعلام والاتصال على الكوني:

لقد دخلت الإنسانية زمنا كونيا جديدا يتميز بغزو وسائل الإعلام والاتصال بشتى نواحي الحياة، فأضحت ضرورة يقتضيها العصر، ويحتاج إليها كل فرد، ليتمكن من الانخراط في مجريات الواقع العالمي، وفهم كل أحداثه، لذلك عدت الأنفوميديا قبلة الجماهير، ونقطة التقاء الأنظار فما الذي يدفع الجماهير إلى هذا الاهتمام الفائق بها؟ ألأنها تنقل وتصور الواقع؟ وما مدى شفافية ونزاهة هذا التصوير؟ ثم ما تأثيرها على الإنسان المعاصر، خاصة ونحن في عصر صناعة الصورة وطغيانها على الكلمة والفكر؟ ومن المسئول على إلقاء كل هذه الصور إلى المشاهد ؟.

يبين جان بودريار "أن شبكة الإعلام والانترنيت ورموز العولمة تعمل على صناعة واقع مجتث عن أصوله عبر مسألة الإيهام أو "السيمولاكر le simulacres""[2]، وهو لعبة قوامها التمويه والاحتيال أي التعبير عن الواقع بوسيلة

[1]- جان بودريار: روح الإرهاب، مصدر سابق ، ص 71.

[2] - Baudrillard jean : la précession des simulacres, revue traverses N 10 février 1978, p 37 .

إيهامية وتضليلية، لقد أدى التطور المعاصر لتكنولوجيا الإعلام إلى تحول الصورة من مجرد تمثيل الواقع إلى تحولها إلى واقع حقيقي، ويطلق كثير من المفكرين وعلى رأسهم جان بودريار على هذه الظاهرة "صنمية" الصورة أو العلامة". وأهم عامل مساعد على انتشار صنمية السلعة في عالمنا الراهن هي الميديا، إذ أصبحت المصنم الأكبر Fetishizer، إذ نتعرف على السلع من خلالها وهي التي تعمل على تحويل القيمة الاستعمالية إلى قيمة تبادلية ثم إلى قيمة رمزية. ويذهب جان بودريار إلى أن صنمية الصورة قد طغت على صنمية السلع ذاتها إذ لم يعد هنالك اتصال مباشر بيننا وبين العالم أو أنفسنا، كون كل أنواع الاتصال تقريبا تحدث عن طريق الصور يعني أن الوسيط قد طغى على أطراف الاتصال وطغيان الوسيط– الصورة على ما يتوسط بينه هو الصنمية بعينها.

لذلك فجان بودريار في تحليله لوسائل الإعلام المعاصر يذهب إلى أن الإعلام وسيلة للانفصال لا الاتصال في قوله: "بدل أن يعمل الإعلام على خلق الاتصال، فإنه يستنفذ ذاته في إخراج الاتصال، وبدل أن ينتج المعنى فإنه يستنفد ذاته في إخراج المعنى (صيرورة اصطناع)"[1]. ذلك أن المتعارف عليه أن وسائل الإعلام والاتصال تقوم بوظيفة نقل الرسائل والمعلومات بكل شفافية إلا أنها ليست كذلك، إذ يفترض الاتصال وجود حد أدنى من شروط التفاعل وهو علاقة تبادلية بين مرسل ومستقبل بحيث يتبادل الطرفان الإرسال والاستقبال لكنها مرسلة فقط دون أن تكون مستقبلة لرسائل مماثلة للتي ترسلها"[2].

من القضايا التي انتقدها "بودريار" أيضا: قضية الشفافية ليست في نقل حدث ما، لأن الحدث ليس مادة خاما أبدا، ولا ينقل على صورته الأصلية، بل ينقل بعد التحرير والتلوين. فالشفافية غير متوفرة لأنها ليست شفافية الحدث، بل يجب أن تكون شفافية آليات نقل الحدث، فالواقع الذي نشاهده على الشاشة هو نتيجة للإخراج وتحرير ومونتاج الواقع. فالواقع الذي نراه على الشاشة هو واقع تلفزيوني مصنوع، يخفي علينا آليات صنعه، والمصانع الكامنة وراءه، كما أن حضور الكاميرا في حد ذاته يجعل الناس يغيرون من سلوكاتهم العادية ويكيفون أنفسهم معها. الكاميرا إذن تصور مشاهد تحضر فيها الكاميرا، وهذا الحضور نفسه من الواقع الذي تصوره، بحيث لا يعد واقعا خاما شفافا"[3].

إن وظيفة الإعلام المعاصر تكاد تكون نفسها وظيفة الايديولوجيا، فالمفترض أن ما ينقله الإعلام هو الواقع بحذافيره

---

[1]– جان بودريار: المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص 150.

[2]– أشرف حسن منصور: الفلسفة وأيديولوجيا الإعلام: إسهام الفكر المعاصر في دراسة وسائل الإعلام، تاريخ الإطلاع: 24 –03– 2019 الرابط http :llwww ,marscist ,org

[3]– نفس المرجع.

إلا أن المنقول لنا يخفي وراءه كل خداع وأوهام الإعلام. فما أدرانا أن الصور التي ينقلها لنا الإعلام هي الواقع الحقيقي؟.

4- الإنسان في ظل ثقافة الصورة:

من الملاحظ أن عصرنا اليوم هو عصر غزو الصور، فالصورة حاضرة ومعروضة في كل مكان، وكأنها مركز كل شيء، فالصورة بما هي الوسيط بين السلعة والمستهلك أصبحت من مقومات الاقتصاد الاستهلاكي والسوق التنافسي، فالسلعة المنافسة والتي تنتجها الشركة الكبيرة هي القادرة على المنافسة.

لذلك فالصورة أصبحت هي معيار الواقع، ومحك الحكم عليه، فالسلعة تطلب بناء على صورتها، ويتم إرضاء الجماهير إذا كانت السلعة متفقة مع صورتها. فالصورة إذن أضحت تمثل واقعا ثانيا أكثر واقعية من الواقع الحقيقي، وهذا ما أطلق عليه "جان بودريار": "الواقع الفائق" heperreality "[1].

كما نجده يتناول وضع الإنسان في ظل ثقافة الصورة بتفريقه بين الإنسان المرآة والإنسان الشاشة. فالإنسان المرآة هو الذي ينعكس في الأخر من خلال التواصل والتفاعل المتبادل. أما الإنسان الشاشة فهو العارض للموضات والكاشف في سلوكه عن ثقافة الاستهلاك، وهو شاشة عرض لها.

فالقرن العشرين شهد تحول الإنسان من كونه إنسان مرآة إلى إنسان شاشة، والفرق بينهما أن الإنسان قبل عصر الأنفوميديا كان في مواجهة الأنا في علاقة تبادل وتفاعل، حيث تنعكس أفعال الأنا على الأخر والعكس، أما مع الإنسان الشاشة فتغيب العلاقة المباشرة، ويتحول الإنسان نفسه إلى النموذج الأساسي لعصر الإعلام، وهو شاشة حيث يصبح عارضا لموضات أزياء والأنماط من الحياة أعدها له المجتمع الاستهلاكي سلفا. وهنا تختفي العلاقة الانعكاسية التي تتضمن التفاعل ولا يبقى إلا ذلك الإنسان العارض والمؤدي لأدوار محددة.

إن الجريمة الكاملة عند بودريار هي استنساخ الواقع في صيرورة لا نهائية، بحيث تكون ملامسة الأشياء كالابتعاد عنها، ويصبح من العسير التفكير في الواقع لأن الواقع في ثورة المعلوماتية هو الذي يفكر فينا كما لا يمكن " التفكير فيه كواقع حقيقي وإنما كبنية خارجة عن مدارها ومنظور إليها من عالم آخر كوهم أو خيال"[2]. فالجريمة الكاملة تحطم الغيرية والآخر.

---

[1]- أشرف حسن منصور: الفلسفة وأيديولوجيا الإعلام، مرجع سابق.

[2] - Baudrillard jean : la pensée radicale, ed sens et tonka , paris, 1994, PP 12- 13.

والإعلام الحديث يمارس عمليتي التفتيت والتشميل، فهو مجزأ ومشمل في الآن نفسه، لا يشتغل الإعلام على الفرد وحده، ولا على الجمهور وحده، لأن الفرد لوحده ليست له أهمية بالنسبة للإعلام، ولا يشتغل على الجمهور وحده لأن الجمهور ليس كيانا قائما بذاته، بل هو مكون من أفراد. أي أن الإعلام يعامل الفرد على أنه جزء من جمهور، ويعامل الجمهور على أنه ليس إلا مجموعة من الأفراد وهذا يعني أن الإعلام لا يبرز من الفرد إلا ماهو شائع وقياسي ومشترك مع الأفراد الآخرين.

ويرى جان بودريار أن الإعلان هو سلعة نفسه، فهو يتطابق مع ذاته والإشارات الجنسية التي يتلبسها ليست غير مؤشر الشغف الذات في نظام لا يفعل غير أن يعين نفسه ويتمركز حول ذاته، لذلك فمن العبثية أن نرى الإعلان نفسه استلابا لجسد المرأة"[1]، فالمرأة لو لم تكن راضية بأن تظهر عريها في الإعلان لما ظهرت، فكل شيء يحصل بواسطة حب التمركز، وحب البروز.

لذلك نجده يذهب إلى أن "التليفزيون يمارس نوعا من الإبادة على الجماهير تشبه الإبادة النازية لليهود، وأنه يعمل على تقليص الجوانب الاجتماعية، ويعمل على تغييب المعنى وتحويله إلى سديم مكرس، حيث خمول الإبداع والقصور الشامل"[2]. وكل هذا يقضي بطريقة غير مباشرة على القيم الإنسانية من حرية وكرامة وغيرها وبهذا يتلاشى الكوني الإنساني.

لهذا فالإعلام المعاصر إعلام يحتفي بالصور والجسد، ويعمل على إبرازهما والتفنن فيهما، لذلك أضحت الصورة الجدار الذي يصطدم به الجمهور، فبين رافض وبين متقبل، وبين حائر وحالم ليحقق نفسه كالصورة، من هنا تحول ابن آدم المعاصر إلى صورة لا حياة ولا إنسانية فيها، إلى جسد "صورة"، تبعث بها الأضواء والهواء الاصطناعي، وغير ذلك، وهي لا تعدو أن تكون صورة تحتفي بالاستهلاك والجسد، لهذا فالإعلام المعاصر غدا معول هدم للجماهير، وسوية تنخر ثباتنا وإنسانيتنا وأمننا النفسي، باعتباره يسعى إلى جعل كل ما هو متميز يفلت من حياتنا، يجعلنا نتعرى من ذواتنا الإنسانية لنصبح ذواتا صورا "جسدا" فقط.

5- مخاطر العولمة على الكوني:

ما ينبه له بودريار هو اكتساح العولمة لمجلات الكوني الإنساني التي تتمثل في القيم الإنسانية كمبادئ الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية ... فيقول: "الواقع أن الكوني يهلك في العولمة وعولمة التبادلات تضع نهاية لكينونة القيم ...

---

[1]- جان بودريار: المصطنع والاصطناع، مصدر سابق، ص 161.

[2]- نفس المصدر، ص ص 151،150.

فالكوني قد تعولم، والديمقراطية وحقوق الإنسان تعبر الحدود كأي نتاج عالمي."[1] ما يمكن ملاحظته بروز نمط من ثقافة العولمة وعولمة الثقافة التي تتمثل في نزوع نمط ثقافي واحد نحو بلوغ العالمية وإقصاء البقية وفي بروز مجتمعات تتقاسم روابط ثقافية وتتعارض مع بعضها البعض وهذا ما يؤدي إلى انهيار الكوني في العولمي.

فبودريار ينبه إلى انعكاس العولمة على الكوني، لأن الفرق واضح بينهما فالكوني يتعلق بالقيم الإنسانية كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ...، أما العولمة فترتبط بالاقتصاد والثورة التكنولوجية والاتصالية وتكرس لا جنسية رأس المال وانفتاح الأسواق أمام كل البضائع، ... الخ وهذه الفروق بين الكوني والعولمة هي فروق مدمرة للقيم الإنسانية وتؤسس لقيم بديلة تقوم على البراغماتية وهذا ما يؤدي إلى تدمير التنوعات الثقافية، وموت القيم الإنسانية، وموت الخصوصيات. وهنا نجد بوديار يطرح سؤال من يستطيع أن يفشل النظام العالمي؟.

يقول: "إن ما يسعه أن يفشل النظام ليست البدائل الايجابية بل الخصوصيات، إنها الخصوصية التي تنتقم لكل الثقافات، الخصوصية التي دفعت تلاشيها ثمنا لإقامة هذه القوة العالمية الوحيدة ليس المقصود إذن صدمة حضارات بل مواجهة انتربولوجية"[2]، ومنه يرى بودريار أن الواجهة هنا بين المغايرة الراديكالية للخصوصيات الثقافية والكونية الفارغة المنشأ بمجتمع الاستهلاك الراهن ولكن هذه الخصوصيات قد تنشأ داخل هذا المجتمع أو خارجه، ولهذا الأمر لا يتعلق بصراع الحضارات، وينتقد هنا ما في الغرب من عجز متأصل من تصور حياة مختلفة مغايرة للنمط الغربي. كما أن العولمة تؤدي إلى ظهور العنف أو ما يسميه جان بودريار "بعنف العالمي"، فحضارة التعميم الإنساني المعاصرة قد استولدت عدوا من داخلها، لأنها لا تملك عدوا مناظرا، ومن ثم كان عنف العالمي يعمل لإقامة عالم متحرر من كل نظام طبيعي، سواء أكان نظام الجسد أو الجنس، أو الولادة أو الموت، وهو عنف جرثومي يعمل بالعدوى، برد فعل متسلسل ويتخذ مظاهر ميزاجية، وعصابية، ولا عقلانية، مقارنة بعصر التنوير، كما يتخذ صورا جماعية إثنية ولغوية"[3]. ومنه فالعنف اختلط بسلسلة تجمع بين الذاتية والتفاعلية، فالعنف يعمل مع طغيان العالمي في وقت واحد.

فالكوني هنا يحيل على ايديولوجيا بما هو مجال هيمنة واغتراب أين تحل المصلحة محل المعرفة والحقيقة موضع المعنى وتطغى الوحدة على الكثرة أفلا تمثل الكونية المعولمة خطرا على بقية العالم؟.

---

[1]– جان بودريار: مقال السلطة الهمجية، مصدر سابق، ص 43.

[2]– جان بودريار: روح الإرهاب، مصدر سابق، ص 76.

[3]– المصدر نفسه، ص ص 74، 75.

تطرق بورديار إلى نوع أخر من الاستنساخ وهو الاستنساخ الثقافي ويعتبر الأخطر على الكوني لأنه يقضي على التنوع الثقافي فهو يحاول فرض نموذج واحد يكون هو المسيطر على العالم، ومن هنا تصبح الموجودات مجرد نسخ مطابقة لبعضها البعض عبر نظام المدارس ووسائل الإعلام والثقافة وذلك من خلال قوله: "وهذا الاستنساخ الفعلي، أي الاستنساخ الاجتماعي والاستنساخ الصناعي للبشر والأشياء، هو الذي يخلق الفكر البيولوجي للصيغة الوراثية وللاستنساخ الوراثي الذي لا يقوم إلا بمعاقبة الذهني والسلوكي"[1]. و حسب بورديار أن كل الثقافات التي تم دمجها بالقوة في النموذج العولمي دمرت، لأن كل ثقافة إذا عممت فقدت خصوصيتها وماتت .

وقوله كذلك" :أن كل ثقافة تعمم تفقد خصوصيتها وتموت هكذا كان أمر كل الثقافات التي دمرناها بدمجنا إياها بالقوة، وكذلك بثقافتنا التي تتطلع إلى العام، الفرق أن الثقافات الأخرى ماتت من خصوصيتها وهو موت طبيعي في حين أننا نموت من فقدان كل خصوصية ومن استئصال كل قيمنا وهو موت عنيف"[2]، وهنا يرى أن أخطر ما تعانيه الإمبريالية اليوم هو فقدانها لأصالة الهوية والثقافية. لأن كل العوالم تهلك في العولمة وهذه الأخيرة تصنع نهاية لكونية القيم، فهي تكوين لنظام الواحدي لا الكونية القيمية بمفهومها الشامل.

كما يقدم بورديار توضيح على خطورة العولمة على القيم الإنسانية في قوله: "إن مايتعولم هو السوق أولا، وفرة التبادلات وكل المنتجات، وتدفق المال المستمر،... لا يعود ثمة اختلاف بين العالمي والعام، فالعام نفسه تعولم والديمقراطية وحقوق الإنسان تعبر الحدود كأّي منتوج عالمي كالنفط أو رؤوس الأموال". وبهذا العولمة أصبحت مأزقا يصعب تفاديه، لكن أفلا يجب أن نراهن على كونية إنسانية تتجاوز المصالح الاقتصادية العولمية والمصالح الثقافية الضيقة، لتراهن على الإنساني باعتباره قيمة نسعى دائما إلى تحقيقها؟.

6- الإرهاب من منظور بودريار:

يعطي بودريار تفسيرا لظهور الإرهاب وتفاقمه كظاهرة معاصرة في كتابه "روح الإرهاب" إذ يقول: " ليس الإرهاب الراهن حفيد تاريخ تقليدي للفوضى والعدمية وللتعصب إنه معاصر للعولمة"[3]، ومنه يرى أن الإرهاب وليد العولمة أي وليد هذا النظام العالمي الذي يكرس مفهوم الإقصاء وبهذا يخالف بودريار الأركيولوجيين المعاصرين الذين يردون موضوع الإرهاب إما إلى أصول دينية وإما إلى طبيعة البيئة الجغرافية.

ويصف بودريار وضع النظام العالمي الحالي بأنه شكل من أشكال الإرهاب بالنسبة للثقافات والحضارات الأخرى

---

[1]- جان بودريار: التبادل المستحيل، تر جلال بدلة، معابر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق- سوريا، 2013، ص 50.

[2]- جان بودريار :روح الإرهاب، مصدر سابق، ص 30.

[3]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إذ يرى أن "إرهاب ضد إرهاب ليس هناك إيديولوجيا وراء كل هذا، ذلك أننا صرنا من الآن فصاعدا فيما وراء الأيديولوجيا أو السياسة"[1]، وهذا يعني أن الصراع والصدام القادم هو صدام الثقافات والحضارات، ونجد بودريار ينفي أن يكون الإرهاب صناعة إسلامية، إذ يرى أنه لو كان الإسلام يسيطر على العالم لوقف الإرهاب ضد الإسلام حيث يقول: "ليس ذلك إذن صدمة الحضارات ولا صدمة أديان كما يتجاوز الإسلام وأمريكا اللذين نحاول تركيز الصراع بينهما كي ما نمنح أنفسنا وهم صراع مرئي وحل يتم بالقوة، إنها فعلا خصومة أساسية لكنها تسير عبر شبح أمريكا التي ربما هي المركز الأساسي لكنها ليست تجسيد العولمة لوحدها عبر شبح الإسلام الذي هو الآخر يجسد الإرهاب إلى العولمة المنتصرة في صراعها مع ذاتها"[2]، ومنه فإن الإرهاب بات كالفيروس منتشرا في كل مكان إذ أصبح كالظل الملازم لكل نظام هيمنة. ذلك أن العالم نفسه هو الذي يقاوم العولمة، وبالتالي لا حاجة لأن يكون المرء إسلاميا أو داعيا إلى حقيقة عليا كي يحدد أنّ هذا النظام العالمي غير مقبول، سواء كان هذا الرفض الإسلامي أصوليا أم لم يكن فنحن نشاركه فيه، إذ أنّ الاحتكار الأمريكي يعبر عن الإفراط في الهيمنة.

ويذهب "جان بودريار" إلى أن العولمة ستندثر من داخلها وبآليتها، بواسطة تقنياتها. وكمثال عن ذلك أحداث 11سبتمبر 2001، هذه الأحداث التي زعزعت أيقون القوة والازدهار وزعزعت ثقة العولمة بنفسها. وهذه الظاهرة الجديدة التي تمركزت وكأنها الغاية القصوى للإنسانية، وكأنها نهاية التاريخ"[3]. ويرى أن انهيار برجي مركز التجارة الدولية، ومقر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) من أحداث11 سبتمبر 2001 م هو الحدث الرمزي الأكبر، فيتساءل هنا عن البرجان هل تحطما أم انهارا؟، يقول بودريار: " في الواقع البرجان يشكلان في نفس الوقت موضوعا ماديا، معماريا، وموضوعا رمزيا، رمز القوة المالية والليبرالية العالمية، وفي الواقع انهيارهما الرمزي أدى إلى انهيارها المالي كما لو أن هذه القوة المتكبرة نزحت فجأة تحت وطأة قوة أكبر"[4]، ومنه يعتبر حدث المركز العالمي للتجارة لا أخلاقي، أي أن هذا التحدي الرمزي لا أخلاقي، ويرد أيضا على العولمة هي الأخرى لا أخلاقية. ومنه فالإرهاب لا أخلاقي.

وبالتالي فإن أحداث 11سبتمبر 2001م هي ليست تعبيرا عن المواجهة بين الإسلام والمسيحية، ولا بين الشرق والغرب، ولكن هذا ما يريده المتآمرون الأمريكيون أن يقود القرن الواحد والعشرين إليه. ومنه فعلى الغرب الرأسمالي الاستعماري أن يبحث عن مناهج يمكن أن تضمن له بقاء سلطته وهيمنته على العالم بعد أن أضحى يعاني من العديد من التناقضات الداخلية.

---

[1]- جان بودريار :روح الإرهاب، مصدر سابق ، ص 15.

[2]- المصدر نفسه، ص 16.

[3]- فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر "جدلية الحق والقوة"، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 2008 ،ص174.

[4]- جان بودريار، وادغار موران: عنف العالم، ترجمة إبراهيم محمود، دار حوار للنشر والتوزيع، سوريا، د ت، ص 49.

كما يذهب بودريار: "أن العنف الذي نشهده اليوم هو عنف رد الفعل، عنف رمزي خصوصي مقابل العنف الرمزي والمادي العولمي، هو ضد العنف العالمي الذي هو عنف يلاحق كل شكل من أشكال السلبية والخصوصية"[1].
وبالتالي فالعولمة التي تحدث عنها بودريار ماهي إلا ادعاء للكونية، إذ هي كونية السوق، والسياحة، والإعلام والتكنولوجيا، كونية تشيئ الإنسان وتنميطه، كونية تجسدت في عولمة القيم الغربية، لذلك فالعولمة ماهي إلا خصوصية غربية مدعية للكونية. فالحياة وهبت للعولمة على حساب موت الكوني ونقيضه الخصوصي ورديفه العالمي ولكن هناك من يموت من خصوصيته عندما تتحول إلى عالمي وهناك من يموت لفقدان خصوصيته عندما تتعولم وتفقد رغبتها في التطلع إلى الكوني.

خاتمة:

وأخيرا يمكن القول أن فكر بودريار يكسبنا القدرة على نقد الواقع الذي نعيشه، وفضح المسكوت عنه بالإقرار بالطابع المتوحش اللاإنساني للعولمة، كما يعلمنا كيف نتجاوز الظاهر المزيف إلى الباطن الحقيقي، فظاهر العولمة لا تزيد عن كونها عولمي إنساني، أما باطنها فيه هلاك للكوني، لكن هذا لا يعني أن مفهوم العولمة مفهوما سلبيا بإطلاق كما يراه بودريار وليس دائما نقيض الكوني، بل لعل التوظيف اللاإنساني للعولمة وفهمنا السيئ لها هو الذي دفعنا لهذا القرار، إذ يمكن أن نتحدث عن عولمة الكوني دون إلغاء الكوني الإنساني، ودون إلغاء للخصوصية، أو ثقافة لأخرى، وإذا أقررنا أن الكونية تختلف عن العولمة التي تلغي الخصوصية الثقافية فنحن مدعوون اليوم إلى تحقيق التوازن بين الكونية الخصوصية والعولمة، وأن لا نيأس من إمكانية قيام كونية إنسانية يكون فيها التواصل بين الثقافات ممكنا.

وليكون الكوني كونيا إنسانيا وليس هيمنيا نطلبه ونسعى لإنقاذه من خطر التعصب ومن خطر العولمة و ليكون كونيا يقوم على التنوع والاختلاف ويعمل على الحفاظ على هذه المكونات يجب أن نبني ثقافة قائمة على أسس الحوار والاختلاف والتنوع، وذلك هو كوني الحياة.

كما يمكن تثمين البعد الإنساني للحضارة الكونية، حضارة الدولة الديمقراطية البيروقراطية وهو الشكل الكوني الذي نسعى إليه.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

[1]- علي عبود المحمداوي، ومجموعة من المؤلفين :الفلسفة الغربية المعاصرة، ج2، ترجمة علي حرب، دار الإيمان،المغرب، 2013، ص 1314.

جان بودريار: – المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.

– روح الإرهاب، تر: بدر الدين عرودكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

– التبادل المستحيل، تر جلال بدلة، معابر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق– سوريا، 2013.

– السلطة الهمجية، تر: بدر الدين عرودكي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد134، 2006.

–جان بودريار، وادغار موران: عنف العالم، ترجمة إبراهيم محمود، دار حوار للنشر والتوزيع، سوريا، د ت

2– مصادر بالأجنبية:

Baudrillard jean : la pensée radicale, ed sens et tonka , paris, 1994.

Baudrillard jean : la précession des simulacres, revue traverses N 10 février 1978

3– المراجع:

1–السيد ياسين: العالمية والعولمة ،دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط2، 2002.

2–أشرف حسن منصور: الفلسفة وأيديولوجيا الإعلام: إسهام الفكر المعاصر في دراسة وسائل الإعلام، الرابط http :llwww ,marscist ,org

3–طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2006

4–صلاح عثمان :الداروينية والإنسان، نظرية التطور من العلم إلى العولمة ،منشأة المعارف جلال حزى وشركاه، ط1، 2001.

5–فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر "جدلية الحق والقوة"، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 2008.

6–علي عبود المحمداوي، ومجموعة من المؤلفين :الفلسفة الغربية المعاصرة، ج2، ترجمة علي حرب، دار الإيمان،المغرب، 2013

المعاجم:

المعجم العربي الأساسي: تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب، تقديم الدكتور محي الدين صابر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989.